

تفسير البحر المحيط

@ 479 @ صحب من يعرف ذلك ، وهو من قوم أميين ، فمدرك ذلك إنما هو الوحي من عند الله كما قال في الآية الأخرى ، وقد ذكر قصة أبعد الناس زماناً من زمانه / صلى الله عليه وسلم) . وهو نوح عليه السلام ، واستوفاهما له في سورة هود أكثر مما استوفاهما في غيرها { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا } وفي هذا دليل على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم (إذ أخبر بغيوب لم يطلع عليها إلا الله من شاهدها ، أو : من قرأها في الكتب السابقة ، أو : من أوحى الله إليه بها . وقد انتفى العيان والقراءة ، فتعين الثالث وهو الوحي من الله تعالى .

والكاف في : ذلك ، و : إليك ، خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم) ، والأحسن في الإعراب أن يكون : ذلك ، مبتدأ و : من أنباء الغيب ، خبره . وأن يكون : نوحيه ، جملة مستأنفة ، ويكون الضمير في : نوحيه ، عائداً على الغيب ، أي : شأننا أننا نوحى إليك الغيب ونعلمك به ، ولذلك أتى بالمضارع ، ويكون أكثر فائدة من عوده على : ذلك ، إذ يشتمل ما تقدم من القصص وغيرها التي يوحىها إليه في المستقبل ، إذ يصير نظير : زيد يطعم المساكين ، فيكون إخباراً بالحالة الدائمة . والمستعمل في هذا المعنى إنما هو المضارع ، وإذ يلزم من عوده على : ذلك ، أن يكون : نوحيه ، بمعنى : أوحيناه إليك ، لأن الوحي به قد وقع وانفصل ، فيكون أبعد في المجاز منه إذا كان شاملاً لهذه القصص وغيرها مما سيأتي ، وجوزوا أن يكون : نوحيه ، خبراً : لذلك ، و : من أنباء ، حال من : الهاء ، في : نوحيه ، أو متعلقاً : بنوحيه . .

{ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلَاقُونَ أَقْوَلامَهُمْ أَيْيَهُمْ يَكْفُلُ مَرِيَمَ } هذا تقرير وتثبيت أن ما علمه من ذلك إنما هو بوحى من الله تعالى ، والمعلم به قصتان : قصة مريم ، وقصة زكريا . فنبه على قصة مريم إذ هي المقصودة بالإخبار أولاً ، وإنما جاءت قصة زكريا على سبيل الاستطراد ، ولأن دراج بعض قصة زكريا في ذكر من يكفل ، فما خلت من تنبيه على قصة . .

ومعنى : { مَا كُنْتَ * لَدَيْهِمْ } أي : ما كنت معهم بحضرتهم إذ يلقون أقلامهم . ونفي المشاهدة ، وإن كانت منتفية بالعلم ولم تنتف القراءة والتلقي ، من حفاظ الأنباء على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي ، وقد علموا أنه ليس ممن يقرأ ، ولا ممن ينقل عن الحفاظ للأخبار ، فتعين أن يكون علمه بذلك بوحى من الله تعالى إليه ، ونظيره في قصة موسى : {

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ { وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ } وفي قصة

يوسف { مَا كُنْتُ * لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ } . .

والضمير ، في : لديهم ، عائد على غير مذكور ، بل على ما دل عليه المعنى ، أي : وما

كنت لدى المتنازعين ، كقوله : { فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا } أي : بالمكان . .

والعامل في : إذ ، العامل في : لديهم . وقال أبو علي الفارسي : العامل في : إذ ، كنت

. إنتهى . ولا يناسب ذلك مذهبه في كان الناقصة . لأنه يزعم أنها سلبت الدلالة على الحدث ،

وتجردت للزمان وما سبيله هكذا ، فكيف يعمل في ظرف ؟ لأن الظرف وعاء للحدث ولا حدث فلا

يعمل فيه ، والمضارع بعد : إذ ، في معنى الماضي ، أي : إذ ألقوا أقلامهم للاستهام على

مريم ، والظاهر أنها الأقلام التي للكتابة . وقيل : كانوا يكتبون بها التوراة ،

فاختاروها للقرعة تبركاً بها . وقيل : الأقلام هنا الأزلام ، وهي : القداح ، ومعنى الإلقاء

هنا الرمي والطرح ، ولم يذكر في الآية ما الذي ألقوها فيه ، ولا كيفية حال الإلقاء ، كيف

خرج قلم زكريا . وقد ذكرنا فيما سبق شيئاً من ذلك عن المفسرين ، وإني أعلم بالصحيح منها

. وقال أبو مسلم : كانت الأمم يكتبون أسماءهم على سهام عند المنازعة ، فمن خرج له السهم

سلم له الأمر ، وهو شبيه بأمر القداح التي يتقاسم بهال الجزور . .

وارتفع { أَيَّيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ } على الابتداء والخبر ، وهو في موضع نصب إما

على الحكاية بقول محذوف ، أي : يقولون أيهم يكفل ، ودل على المحذوف : { يُلَاقُونَ

أَقْوَلامَهُمْ } وقد استدل بهذه الآية على إثبات القرعة وهي مسألة فقهية تذكر في علم

الفقه . .

{ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ } أي : بسبب مريم ، ويحتمل أن يكون

هذا الاختصام هو الافتراع ، وأن يكون اختصاصاً آخر بعده ، والمقصود شدة رغبتهم في

التكفل بشأنها . والعامل في : إذ ، العامل في : لديهم ، أو ، كنت ، على قول أبي علي في

: إذ يلقون